إسهامات دولـــــة الموحديـــن في العلوم الأدبيـــــــــة

أ. صلاح عبد السَّـــلام الكشت كلية التربية ـــ جامعة الزنتان

المُقدمـــة:

شهدت بـــــــــــلاد المغرب الأقصى خلال القرنين السادس وأوائل السابع الهجري الموافق للقرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشـــــــــر الميلادي فترة مزدهـــــرة في كافة العلوم ، حيث أصبحت هذه الفترة من أخصب فترات تاريخه في العصور الوسطى ، فأنشئت على أرضه دولتان هما دولة المرابطين ثم دولة الموحدين ، ففي ظل هاتين الدولتين برزت شخصية المغرب كدولة مستقلة قامت على أكتاف أبنائها الذين قاموا بإرساء قواعد الحضارة فيه بما قدمه من نظم محكمة من المظاهر الإدارية التي كانت من أهم الأســس التي ارتكزت عليها مقومات الدولة، لحفظ النظام والأمن واستقراره ، فكان من الضـروري أن يكون لهذا النظام أسـس ومبادئ ثابتة ورصينة لبناء الدولة واستقرارها ، لهذا فإن هذه النظم قد شكلت جانباً مهماً في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وداخل الدولة الموحدية بصفة خاصة.

أما تيار الثقافة المتدفـــق بما فيه من آراء ومؤلفات وعلماء والذي أضاف إلى الفكر الإســـلامي الكثير من الآراء ، فلم يجد الموحدون من بلاد المغرب بلاداً قاحلة من المعارف ؛ بل وجدوها بلغت ازدهاراً كبيراً من الناحية العلمية ، حيث تمكنوا من مواصلة العمل المجيد الذي بـــدأه المرابطون وهـــو إقامة صرح الحضارة المغربية ، فقد كانت تتجسّـــــــــد فيها الحياة الأدبية من أدب ولغة ، والحياة العلمية من فلسفة وطب وعلوم اجتماعية وغيرها، حتى صـــارت المدن المغربية تزخر بطلاب العلم والمعرفة في العلوم المختلفة ، وأصـــبحت المحافل المغربية تمتلئ بالكتّاب والشـــــــعراء، فنشطت الحركة الفكرية وأصبح للمغرب الأقصى دوره الواضح في تغذية شريان الثقافة الإسلامية بما قدّم من علم وعلماء.

وإلى جانب الحياة العلمية والأدبية كان الجانب المعماري الذي يعتبر من الجوانب الأســاسـية التي انصـــب عليها اهتمام الموحدين، فشـكل الفن المعماري أحد الركائز الأساسية في بناء الدولة الموحدية مثله في ذلك مثل الجانب العسكري ، حيث شهدت البحرية اهتماماً كبيراً تمثل في بناء السفن والعناية بالجيش والأســـــــطول وإنشاء

المدارس الحربية ، فقد قام عبد المؤمن بن علي ببناء مدينة بحرية حصينة على سفح جبل طارق وذلك عام (555هـ/ 1160م) سمّاها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى للموحدين ، وقد نتج عن ذلك ازدهارا في الحياة الاقتصادية ، خاصة في العهد الأول من حكم الموحدين ، فكانت السياسة المالية التي اتبعها خلفاء دولة الموحدين في التعامل مع اقتصادها من أهم عوامل حفظ النظام والاستقرار داخلها.

منهج البحث:

اختار الباحثان المنهج التاريخي السردي باعتباره المنهج المناسب لتخصص ونوع البحث وما يحتويه من معلومات ومباحث تتحدث عن فترة تاريخية معينة بمنطقة المغرب العربي ، وما حدث خلالها من آداب وفنون.

لمحة عن دولة الموحدين

المهدي بن تومرت والدعوة لقيام الدولة الموحدية

"خلفت الدولة المرابطية (448- 541هـ/ 1056-1147م) في حكم المغرب والأندلس دولة مغربية أخرى هي دولة الموحدين ، وقامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية طابعها التجديد ، وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة ، ومؤسس هذه الدعوة هو محمد بن تومرت ، من قبيلة هرغة إحدى قبائل المصامدة في جبل السوس من بلاد المغرب ، نزلوا بها لما فتحها المسلمون مع موسى بن نصير، وقد نشأ ابن تومرت نشأة دينية محباً للعلم وحريصاً عليه ، حيث تعلّم في قريته، غير أن تلك الدروس التي تلقاها في موطنه لم ترو ظمأه العلمي ، فقام برحلة علمية إلى المراكز الثقافية في البلاد الإسلامية ، فبدأت رحلته إلى الأندلس أولاً ثم المشرق ، حيث مرّ بالإسكندرية ، والتقى بالفقيه أبي بكر الطرطوشي ، وواصل سفره إلى بغداد، أما فيما يخص لقائه بأبي حامد الغزالي فقد اختلف المؤرخون فيه ، فمنهم من يثبت ذلك ومنهم من يشكك فيه، ومنهم من ينفيه نهائياً([1]) .

"امتازت رئاسة الدولة الموحدية في البداية بإمامة منشئها المهدي بن تومرت التي لم تضف على رئاستها أي طابع آخر، حيث كانت هذه الإمامة مصدراً للسلطات الدينية والسياسية معاً ، وكانت الحكومة الموحدية عبارة عن حكومة دينية ، يعاون الإمام فيها صحبه العشر الأوائل المسمون بالجماعة ، وكان هؤلاء يضطلعون بمشورة الإمام في كافة الأمور، كذلك كان يوجد إلى جانب هؤلاء أفراد آخرون وهم أهل

الخمسين الذين يشتركون في بحث الشؤون الأقل أهمية ثم أهل السبعين، ويشتركون في بحث الشـــؤون العادية(2) .

"ويعد ابن تومرت أول من دعا لقيام الدولة الموحدية وإن لم تؤسس ولم يطلق عليها هذا الاسم ؛ لأنه أطلق اســـــم الموحدين على من تابعه وبايعه ، حتى أتى من بعده: عبد المؤمن بن علي فبايعه الناس على ما رأوا فيه من شـــبه الخلق والقيادة بالمهدي، والذي أســـس للخلافة الموحدية وأورث الحكم أبنائه من بعده ، حيث توفي في (558هـــــ \1163م)، واستمرت الدولة الموحدية تاريخيا حتى سقوط مراكش عام : (668هـــ \1269م) (3) .

إسهامات الموحدين في الآداب والفنون:

أولاً: الشعر.

ثانياً: النثر.

ثالثاً: اللغة والنحو.

رابعاً: الموشحات والزجل.

خامساً : الموسيقى

تمهيد

" لم يجد الموحدون بلاد المغرب قاحلة من المعارف ، بل وجدوها بلغت شأواً كبيراً من الناحية العلمية ، فكان فضـلهم على المعارف عظيماً ، حيث حافظوا على ما اختاروه منها وشـجعوها كما شـجعوا كثيراً من العلوم التي كان رواجها محظوراً في العهد المرابطي ، فقد شـجّع الخلفاء الموحدون النشـاطات الفكرية والعلمية والأدبية، فأعطيت الحرية للعلم والعلماء ، وهذه الحرية تعود أســاســا إلى ثقافة القادة ابتداءً من مؤسـس الدولة المهدي بن تومرت وتلامذته الذين تولوْا السـلطة من بعده ، فشـجعوا الحياة الدينية التي على أسسها قامت الدعوة الموحدية ، وكانت هناك الحياة الأدبية من أدب ولغة ، والحياة العلمية من فلسفة وطب وعلوم اجتماعية وغيرها ، فصارت المدن المغربية تزخر بطلاب العلم في العلوم المختلفة وصار للمغرب الأقصى دوره الواضح في تغذية شريان الثقافة الإسلامية بما قدّم من علم وعلماء(4) .

وكـان ذلك لعدة عوامل ســاعدت على دفع الحركة الفكرية بالمغرب زمن الموحدين ومنها :

أولاً ــ استقرار الأوضاع في المغرب أيام المرابطين : الذين استطاعوا توحيد مناطقه في ظل حكومة مركزية واحدة ، وكذلك فعل الموحدون من بعدهم ، فنتج عن هذا استقرار وطمأنينة السكان ، وهذا الاستقرار صاحبه ازدهار الحياة الاقتصادية، والمناخَ العلمي للطلبة ، إضافة إلى هجرة العلماء والأدباء إلى المغرب بسبب وجود القبائل العربية المكتسحة([5]) .

ثانياً ـــ تشجيع الخلفاء للعلم والعلماء والاهتمام بهم :- ويعتبر من الأسباب المهمة للازدهار الفكري - فالدولة الموحدية قامت على أساس مبدأ ديني، ونشأ عبد المؤمن بن علـــــــــــيّ في مهاد دعوة دينية وتتلمذ على يد الداعية ابن تومرت ، فكان من الطبيعي أن يشجّع الخلفاء الموحدون الآداب ، خاصة أنهم أنفسهم كانوا من العلماء كعبد المؤمن ابن علي الذي بدأ حياته طالباً طموحاً ، وقد دفعه هذا الطموح إلى السفر للمشرق ، طلباً للعلم إلا أن ابن تومـــــــــرت ثنى عزمه عن ذلك ، ويوسف بن عبد المؤمن بن علي الذي كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن وأحفظهم للغة العربيـــــــــة ، و- أيضـــاً- الخليفة المنصـــور الموحدي والمأمون ، وقد بلغ من اهتمام الموحدين بالعلماء أن قسموهم طائفتين " ، فقد جرت عادتهم بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء من أهل كل فن، وخاصـــة أهل علم النظر وســموهم طلبة الحضــر، فهم يكثرون في بعض الأوقات ويقلون ، وصنف آخر ممن عني بالعلم من المصامدة يسمّون الموحدين ، ولابد في كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم([6]) .

ثالثاً ـ الصلة بين المغرب والأندلس : الذي أصبح إقليماً تابعاً للمغرب أيام المرابطين' فكان الخلفاء يرحبون بالعلماء والأدباء الأندلســيين ويتخذون منهم الوزراء والكتاب والقضـــاة ، إضـــافة إلى هجرة العلماء من الأندلس إلى المغرب فراراً من معارك الموحدين ضد النصارى، فنتج عن ذلك تدفق الثقافة الأندلسية المتنوعة على المغرب الأقصى([7]).

رابعاً ـــــ رغبة العديد من أبناء المغرب في طلب العلم : وذلك في ظل الاستقرار الـــذي ساد البلاد ، خاصة أن مناصب الدولة ووظائفها كانت قاصرة على المتعلمين والمثقفين والدليل على ذلك تأسيس عبد المؤمن بن علي مدرسة لتخريج طائفة من الإداريين لتولي شـــؤون الدولـــة([8]).

"كل هذا قد ســاعد طلبة العلم على التزود بالمعلومات والدراســة داخل المغرب، والحصـــول على أكبر عدد ممكن من العلوم ، كذلك دفعت هذه الحركة العلمية الكثير

من أبناء المغرب للارتحال لطلب العلم ســـــواء في المشرق أو الأندلس ، ويأتي في مقدمة هـــــؤلاء بن تومرت الذي رحل إلى المشرق والتقى بالكثير من العلماء ثم عاد إلى المغرب الأقصى وأحدث ثورته الفكرية والعسكرية، كما قام أبو موسى الجزولي' برحلة إلى مصـــر لتلقي العلم ثم عاد إلى المغرب، كذلك القاضـــي عياض رحل إلى الأندلس طلباً للعلم".([9])

ومن ناحية ثانية كان المغرب الأقصـى مقصـداً لطلاب العلم والعلماء ، حيث أقبل العديد من الطلبة من أماكن متعددة يطلبون العلم على يد علمائه وأســاتذته ، ومن هؤلاء ابن دحية، المولود بالأندلس حيث رحل إلى مراكش طلباً للعلم.

"هذا وكان للعلماء مشـاركة في تنمية الحـركة الفكرية خارج المغرب الأقصى، فعليّ بن حسـن الصـديني الفاسـي كان نحوياً متمكناً من علوم العربية وعلوم الدّين، فكان بارعاً في معارفه وجليلاً في علومه ، تولى قضاء غرناطة ودرّس بها، كما درّس عليّ الشـاري السبتّي، العديد من الطلبة بالمرية ومالقة ، كذلك درّس بمصر أبو الخطاب بن دحية"([10]).

"ومن مظـاهر النشـــاط الفكري في الدولة الموحدية اقتناء الأصـــول القديمة والعناية بها ، فقد كان للشيخ أبي حفص بن عمر الهنتاتي همّة عالية في مطالعة الكتب ، ويقول ابن صـاحب الصلاة عنه :" ...واقتنائها وإنشائها حتى اجتمعت له منها خزانة عظيمة عالية الفنون"، وقد تحصـــل عن أبي الحســـن الشـــاري من الأعلاق النفيســـة وأمهات الدواوين العلمية ما لم يكن عند أحد من أبناء عصـــره ولا تحصـــل عند كثير ممن تقدمـه، فكـانـت هذه الكتب المقتناة شـــرقية في معظمها مما يدل على وحدة الفكر والثقافة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه".([11])

كذلك المدارس والمعاهد التي انتشـــرت أثناء حكم الموحدين، حيث وضـــعوا نظاماً للتعليم ، فكان التعليم الإجباري- وهو الذي وضعه عبد المؤمن بن علي - يُوجب على كل من انضـوى تحت راية الموحدين أن يتعلم الضـروري من العقائد وما يتعلق بالصلاة والتعليم المجاني.

"أيضاً هناك حلقات التدريب التي كان يعقدها العلماء ويقصدها الطلاب من كل مكان، ويدرّس في هذه الحلقات عدد من الطلاب على شـــيخ واحد يأخذون العلم منه، ومن هؤلاء مثلاً الشيخ أبو الحسن علي الشاري، فقد بني أبو الحسن مدرسة في مدينة سبتة

ويقول ابن الزبير عنه:" وقف عليها من الكتب ما يحتاج إليه، وشرع في تكميل ذلك على السنن الجاري بالمدارس ببلاد المشرق"([12]).

"كذلك المناظرات العلمية التي كانت مظهراً من مظاهر النشاط الفكري عند الموحدين، وكان الخلفاء أنفسهم يشتركون في تلك المناظرات، ومن هؤلاء الخليفة عبد المؤمن بن علي والخليفة المنصور الموحدي، فقد كانت تعقد بقصره مجالس للعلماء، حيث خصص لكل نوع من العلماء يوماً من أيام الأسبوع فكان مجلس للفقهاء ومجلس للأدباء وهكذا، وكان الخليفة نفسه هو الذي يفتتح هذه المجالس بإلقاء مسألة على الحاضرين ومشاركتهم، كذلك كان لازدهار الوراقة والخط في الدولة الموحدية أثر كبير في النشاط الفكري ، فقد كان في مدينة فاس وحدها حوالي أربعمائة مصنع للورق، وذلك أيام المنصور الموحدي وابنه الناصر، وكان الخلفاء الموحدون أنفسهم م يجيدون الكتابة بأكثر من خط، فكان الخط الشائع هو الأندلسي، وكان إلى جانب هذا الخط العام يوجد نوعان من الخط الخاص، أحدهما يكتب به في السكة والطراز، وكان واحد من الخط الأندلسي والخط الشرقي، والآخر خط العلامة الموحدية الحمد لله وحده، وكانوا يكتبونها بيدهم بخط الثلث الشرقي"([13]).

ومما تجب الإشارة إليه أن الخليفة عبد المؤمن بن علي كان مهتماً بالكتابة والخط، فجعل من بنيه قدوة حسنة في الاهتمام بالخط، فأنشأهم كلهم خطّاطين، حيث كان ابنه عمر يتميز بجودة الخط، حتى مدحه الشاعر الأندلسي ابن مجبر ووصف خطه بقوله:

تبث يمناه زهراً في الطروش ولا نكر على السحب أن ينبثن أزهاراً
خط هو السحر لكنّا ننزهه ونجعل القلم النفاث سحاراً([14])

"كذلك كان عمر المرتضى بارعاً في الخط وله مصحف في عشر مجلدات.

ومن الخطّاطين المغاربة زمن الموحدين عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي الفاسي ، فقد وصف بأنه حسن الخط وله رسائل كثيرة زمن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن توفي عام(597هـ/1201م)، ثم هناك - أيضاً - عمر بن عبد الله السلمي الأغماتي ، الذي اشتهر بجودة الخط أيام الموحدين ، وخاصة في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن"([15]).

المراكز الثقافية بالمغرب الأقصـــــــــى:

"أصبحت المدن المغربية تعـــــــــــج بطلّاب العلم والعلماء ، وصارت المساجد والمجالس تشـــهد المنافســـات الفقهية واللغوية والأدبية وغير ذلك مما حفلت به الحياة الفكرية داخل المغرب ، وتأتي في مقدمة هذه المدن عاصـمة الدولة الموحدية مراكش، حيث كانت تسـتقبل العلماء من مدن المغرب والأندلس ، وصـارت منتدى لرواد العلم والثقافة من أعلام الفكر المغربي والأندلسـي ، حتى أصـبحت في عهد عبد المؤمن بن علي تضـاهـــي بغداد في ازدهار العلوم وكثرة العلماء فيها، كذلك في عهد المنصـور الموحدي الذي اهتم بـالعلم والعلمـاء اهتمـاماً كبيراً، ومن الوســـائل التي اســـتعملها المنصـــور الموحدي للنهوض بالعلوم والآداب تلك المجالس التي كان يعقدها بقصـــره بين الحين والآخر، حيث أعد في مراكش منزلاً خاصـاً سـماه بيت الطلبة يسـتقبل فيه العلماء الواردين على حضرته"(16).

" ومدينـة فاس التي اهتم بها الموحدون أضـــحت هي الأخرى من المدن التي تعج بالعلماء والأدباء ، فازدهرت العلوم الدينية في مسـاجدها المتعدّدة ، خاصـة مسـجدها الكبير المعروف بجـامع القرويين ، الـذي ظل مركزاً علمياً يقصـــده الكثير من طلاب العلم والمعرفة ، يصفها المراكشي بقولـــــه :" ومدينة فاس هذه حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضـع العلم اجتمع علم القيروان وعلم قرطبة؛ إذ كانت قرطبة حاضـرة الأندلس كما كانت القيروان حاضـــرة المغرب ، فلما اضـــطرب أمر القيروان وعبث العرب فيها ، واضـطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت المنصـور محمد بن أبي عامر وابنه رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضـلاء من كل طبقة، فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضـارة" ، ومن المدن المغربية التي شـهدت نشـاطاً علمياً مدينة سـبتة حيث أدى موقعها إلى أن تكون ملتقى لكثير من المؤثرات الأندلسية والمغربية، وممن اشتهر بالتدريس فيها القاضي عياض، وعمر بن عبدالمجيد الرندلي والعالم أبوعلي بن عانسر قريعات"(17).

الآداب والفنون :

"اتســم طابع الأدب المغربي في عهد الدولة الموحدية بصــبغة الجد والحشــمة، فـالمذهب المـالكي وعلمـاؤه وفقهـاؤه في الـدولـة المرابطيـة ودعوة بن تومرت ودعـاة الموحدين كان لهم أثر في توجيه الأدب وجهة جادة، فتبعد عن بعض أنواع الأدب التي طبعت الأدب في المشـــرق والأندلس كالخمريات والغزل وغير ذلك ، مما يتنافى مع

الجو الديني الذي ساد البلاد في عهد الدولة الموحدية، وقد تميز بشكل عام بالبساطة والوضوح التي نشأت عليهما الدولة"(18)

أولاً ــ الشّعر

"ازدهر الشعر خلال العصر الموحدي، وكان خلفاء الدولة يتذوقون الشعر الجيد ويقدرون أثر الإشادة والمديح في تأييد هيبة الدولة والخلافة، إضافة إلى أن منهم من أجاد الشعر كعبد المؤمن بن علي، والمأمون، وعمر المرتضى، والشعراء والمجيدون نالوا مكانة عالية عند الخلفاء، فضلاً عن منح والعطايا.

وفي عهد عبد المؤمن بن علي قل أدب التغزل المكشوف ووقف شعر الخمريات، وذلك تأثراً بالطابع الديني الذي كانت عليه الدولة، فعندما أنشد أبوبكر محمد بن ميمون بن عبد الله القرطبي في مجلس عبد المؤمن بن علي أبياتاً ثلاثة يتغزل فيها بشاب من أهل أغمات يعرف بأبي القاسم بن ستميت حين قال:

أبا قاسم والهوا جنة وها أنا من مسها لم أفق
تبوأت جاحم نار الضلوع كما خضت بحر دموع الحدق
أكنت الخليل أكنت الكليم أمنت الحريق أمنت الغرق

فغضب عليه عبد المؤمن بن علي ومنعه من الحضور في مجلسه ؛ لكن بعض المصادر تنسب محاورة غزلية إلى عبد المؤمن بن علي ووزيره الكاتب أبي جعفر بن عطية ، وذلك أثناء تجولهما في شوارع العاصمة مراكش فنظرت إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي فتاة جميلة من إحدى النوافذ ، ولما رآها عبد المؤمن بن علي أثارت شعوره ، فقال:

قدّت فؤادي من الشباك ؛ إذ نظرتْ
حوراءُ ترنــو إلى العشاق بالمقلِ

فقال ابن عطية : حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل
فقال عبد المؤمن : كأنما لحظها في قلب عاشقه

فطرب الخليفة عبد المؤمن بن علي وأجزل العطاء لوزيره ، فهذه المحاورة الشعرية تنتهي بمدح الخليفة عبد المؤمن بن علي،"([17]) "ولكن من المستبعد أنها حدثت، وذلك لأنه عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي بن تومرت المتقشف اتصف بالصرامة والجد، وحارب شعر الغزل وهذا ما حدث مع ابن ميمون الذي سبق ذكره.

وحين مدح الشاعر المرواني ابن الطليق الأصم المرواني عبد المؤمن بن علي بمناسبة بنائه لمدينة فوق جبل طارق ، قائلاً:

ما للعدا جُنة أوقـــــى من الهرب

فقال عبد المؤمن رافعاً صوته: إلى أين؟ إلى أين؟ فقال الشاعر:

أين المفر وخيل الله في الطلب؟!

وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب؟!

حدِّث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملأ البرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال: عبد المؤمن بمثل هذا تمدح الخلفاء! فسمى نفسه خليفة، وكان ملوك المغرب والأندلس يدينون بالولاء الإسمي للخليفة العباسي في بغداد ، ولا يتسمون بالخلافة احتراماً لذلك

و شـــعراء الدولة الموحدية تناولوا في شـــعرهم كثيراً من الأغراض كالمديح والغزل والتحفظ والحيطة كذلك الشعر الديني والمهدوي"([18]) .

ثانياً: النثر.

"شـــارك النثر الشـــعر في دفع الحركة الأدبية داخل المغرب، حيث اســـتعان خلفاء الدولة الموحدية بمختلف الكتاب لكتابة الرسائل الرسمية، وهذا ظهر واضحاً في الرســـائل الموحدية التي جمعها (ليفي بروفنســـال) ، ومن خلالها يمكن أن نلمس الأسلوب المتميز مع التلاعب بالألفاظ لإظهار المقدرة والتمكن من اللغة ، أما الخطابة فكانت أول أداة استعملها الموحدون، فقد اتخذها المهدي بن تومرت طريقاً لنشر دعوته ، ومنها خطبته التي ألقاها على الموحدين فقاموا بعد سماعها مبايعين له بالمهدوية.

وقد استلزمت المعارك التي خاضها الموحدون وجود الكثير من الخطباء الذين يبثون الحماس في نفوس المقاتلين ، إلى جانب ذلك كان هناك الخطباء الذين يحتلون صـدور المحافل والمجالس ، فالمنصـــور الموحدي كان يجلب إليه الخطباء، وكان هؤلاء يتنافســون بمحضـــر الخليفة في إظهار براعتهم وتفوقهم وقدرتهم على ارتجال الكلام وإقناع السامعين، ومن هؤلاء الخطباء محمد بن عبد العزيز بن عياش، وسهل بن مالك وغيرهما.([19])

"أما التوقيعات فقد برع فيها الخلفاء، حيث تركوا عدة توقيعات تعبّر عن القدرة الأدبية التي كانوا يتمتعون بها، ومن توقيعات الخليفة عبد المؤمن بن علي قصيدة الكاتب أبي جعفر بن عطية ؛ إذ أرسل وهو في السجن قصيدة ، يستعطف بها الخليفة عبد المؤمن بن علي ليمن عليه بالعطف ومطلع القصيدة تقول:

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد بان العزاء لفرط البث والحزن

فوقع عبد المؤمن بن علي على القصيدة (**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)** ، ومن توقيعات المنصور الموحدي حين طلب من أحد القضاة بأن يختار له اثنين من المدرسين لتعليم أولاده فاختارهما القاضي فوصف الأول بأنه بر في ابنه، والآخر بحر في علمه ، فلما اختبرهما الخليفة المنصور الموحدي وجدهما لا يصلحان فوقع بقوله :" **أعوذ بالله من الشيطان** الرجيم **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**" ([20]) .

"كما ظهر من فنون النثر- أيضاً - المناظرات ، ومنها مناظرة المهدي بن تومرت الذي ناظر علماء المرابطين بمجلس السلطان علي بن يوسف بن تاشفين ، ومن فنون النثر التي شاعت في الدولة الموحدية النثر التأليفي ، وكان ذلك أثراً للنهضة الفكرية ، فقد ظهرت مؤلفات في عامة أنواع الثقافة كالتاريخ والفلسفة والعلوم الدينية والأدبية ، حيث شجع عبد المؤمن بن علي على قراءة قصص البطولة والفروسية، ومنها قصة جازية والشريف وتتناول قصة دخول العرب الهلالية إلى إفريقية" ([21]) .

"ومن أهم المؤلفات الأدبية التي جمعت خلال العهد الموحدي الدواوين الشعرية ، ومنها ديوان عبد الله بن حبوس الفاسي ، وقد جمع له أصحابه ما علق بحفظهم منه أو حضرهم ذكرهم ، فاحتوى على ستة آلاف وخمسمائة بيت ، وقد جمع في مجلد متوسط ، كذلك ديوان الأمير أبي الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن جمعه له كاتبه الشاعر أبوعبدالله محمد بن عبدربه المالقي ، وسمّاه " نظم العقود "، وديوان لأبي العباس الجراوي، ولميمون بن خبازة ديواناً جمع فيه كثيراً من شعره.

ومن الكتب الأدبية المؤلفة : ديوان "مختصر الأغاني " للأمير أبي الربيع الموحدي، وديوان " صفوة الأدب وديوان العرب" ، وهي الحماسة المغربية لأبي العباس الجراوي ، وغير ذلك من الدواوين والكتب الأدبية".

ثالثا ــ اللغة والنحو.

"لعبت اللغة العربية دورها في نشر المعارف المتنوعة، فقد كانت لغة المكاتبات واللغة الرسمية للبلاد في معاملاتها وشؤونها، وزاد من انتشارها أفواج العلماء القادمين من خارج البلاد والذين أثروا في الحياة الفكرية بدروهم ، ومؤلفاتهم ، إضافة إلى أن ثقافة خلفاء الموحدين كانت ثقافة إسلامية ووسيلتهم في ذلك اللغة العربية، كما

أن المناهج الدراسية كانت تتخذ من كتاب الله وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - قاعدة ومنهاجاً وكانت تدرس باللغة العربية ، وكذلك وجود عامل مهم في عهد الموحدين وهو مجيء العرب الهلالية إلى المغرب الأقصى تحقيقاً لرغبة الموحدين واحتفاظهم باللسان العربي ، كل هذا ساعد على انتشار اللغة العربية كلغة للتخاطب والتعامل بين الناس في المغرب ، إلا أن لغة المغاربة استخدمت في بعض نواحي الحياة خلال الفترة الأولى لحكم الموحدين، فقد كان المهدي بن تومرت يستخدمها في حديثه الشخصي، فأثناء عبور مجموعة من أصحابه وادي أم الربيع طلب بعض المشرفين ضريبة العبور فأعلن استنكاره لذلك بلهجة المغاربة قائلاً:" أمورن لمولنين أن سوس أواون نال "، ومعناها " إنما السبيل للمسلمين وأنتم تقطعونها وهذا غير جائز في الشرع [3]، كما أنه كان ينشر دعوته بين أصحابه باللغة العربية ولهجة المغاربة وألف لهم بعض المؤلفات باللسان المغربي مثل : كتاب " التوحيد"، وهو بسبعة أجزاء على عدد أيام الأسبوع كذلك كتاب سماه " بالقواعد" وآخر" بالإمامة "، فقد اشترط الخلفاء الموحدون من خطباء المساجد معرفتهم بلغة المغاربة، ولذا حين دخل الموحدون مدينة فاس عزلوا خطيب جامع القرويين لعدم معرفته بلغة المغاربة وعينوا مكانة من يجيد اللغتين العربية والمغاربية ([22]).

"ومن الأسباب التي حفزت الخلفاء الموحدين على اشتراط تعليم الدّين باللغتين العربية والامازيغية لمن لا يفهم اللغة الأخيرة في تدريبهم وتأليفهم ، إلا أن الاهتمام الذي أولاه المهدي بن تومرت ومن بعده عبد المؤمن بن علي بلغة المغاربة على أنها لم تكن ذات خطر على تيار الثقافة العربية ولغتها، إذ كانت محصورة في مجال الدعوة الموحدية وما يتعلق بها، ولما جاء المأمون الموحدي أنكر على ابن تومرت أشياء كثيرة ومنها استخدامه للهجة المغاربية في دعوته".([23])

"كانت اللغة والنحو من العلوم الشائعة في عهد الموحدين وقد بلغا غاية كبرى، وكان يوسف بن عبد المؤمن من أحفظ الناس للغة وأسرعهم نفوذاً لمسائل النحو.

وقد ظهر العديد من اللغويين، منهم محمد بن عبدالمنعم الصنهاجي السبتي ووصف بأنه لم يستظهر أحد في زمنه منها ما استظهره، كذلك من اللغويين الذين كانوا موجدين بالمغرب أيام الموحدين أبوالخطاب بن دحية وأخوه عمر، وأبي القاسم علي بن حمزة البصري فقد وجد بمكتبة القرويين أوراق من تأليف في اللغة بخط أبوالقاسم البصري كتبها برباط الفتح عام (586هـ/1190م)، وأبوعبدالله محمد بن هشام اللخمي السبتي ،

وهو من أبرز شخصيات العصر الموحدي في علوم اللغة ، فقد كان قائماً على اللغات والآداب ، ووضع مؤلفات في اللغة منها : كتاب " الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل"، وإصلاح ما وقع في أبيات سيبويه وفي شرحها للأعلام "من الوهم والخلل"([24]).

أما علم النحو فقد ازدهر في العديد من مدن المغرب الأقصى حيث وجدت مدراس نحوية انفردت بآراء خاصة في مسائل الإعراب مثل : مدرسة فاس التي اختلف أهلها عن مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هريرة ومدرسة سبتة التي تخالف الجمهور في ضم النكرة المقصورة إذا نونّت اضطراراً، ومدرسة طنجة التي كانت مركزاً من مراكز النحو وقد وجهت أسئلة نحوية إلى مدرسة إشبيلية.

كان أبوموسى عيسى بن عبدالعزيز الجزولي المراكشي رئيس النحاة في المغرب في العهد الموحدي ، وقد درّس بالمغرب ومصر ثم عاد للتدريس بالمرية وبجاية ومراكش التي تولى فيها الخطابة ومن مؤلفاته " شرح السراج والأمالي في النحو" واشتهر بالمشرق برسالته في النحو التي سميت بعدة أسماء، بالقانون وبالمقدمة الجزولية ، وكانت تشمل على رموز وجداول كان من الصعب على الكثيرين فهمها حتى اضطر إلى أن يضع لها شرحاً، وقد وصفت بأنها كتاب جليل في هذا الفن، وقد أتى فيها بالعجائب وشملت على كثير من النحو وتوفي عام (601هـ/1204م)، ومن النحاة المغاربة- أيضاً - أبوالقاسم عبدالرحمن بن القاسم يوسف المغيلي الفاسي، وأبوالعباس أحمد بن محمد بن خلف البكري، وأبوعبدالله محمد بن يحيى بن داود التادلي المراكشي كان عاملاً بالنحو محققاً به درسهُ طويلاً.

رابعاً: الموشحات والزجل.

هي من فنون الشعر العربي التي ابتكرها الأندلسيون ، أما في بلاد المغرب أيام الموحدين فقد ظهر بعض الوشاحين، إلا أنهم كانوا أندلسيين، ولم تكتب المصادر التاريخية على أي وشاح من بلاد المغرب ، وربما السبب كما يذكر المنوني أن المؤرخين المغاربة أيام حكم الموحدين أهملوا تدوين الموشّحات في الكتب المجلدة المخلدة. ففي عهد عبد المؤمن بن علي ظهر وشّاح أندلسي وهو أبوبكر بن زُهر الذي اشتهر- أيضاً - في علم الطب، ومن موشحاته قوله:

سد لن ظلام الشعور على أوجه كالبدور
سفرن فلاح الصباح هززن قدود الرماح

ومنها:

أساعات الليل شهور أم الليل حولي بدور
ظفرت بصب كئب فنكد وعذب وجور
أسرف!! علامك صبور!!

وقد مدح به الناصر، حيث مدحه أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي المرينطري ، كذلك أهدى بعض الأدباء للمرتضى الموحدي تأليفاً يتضمن الكثير من الموشحات ، فهذا يدل على أن المغاربة اهتموا بالموشحات وأحبوا هذا النوع من الأدب بدليل أنه عند مرور الشاعر الأندلسي الهيثم الأشبيلي (ت 630هـ/ 1232م)، بقصر كتامه يريد مراكشاً، فأقترح عليه الشيخ أبوعلي القصري رسالة وموشحة وشعراً فأجاب الشاعر الأندلسي طلب المقترح المغربي.

وقد توافد على المغرب عدد من الوشاحين الأندلسيين واتصلوا بأهله وأقاموا به، ومن هؤلاء الوافد أبوبكر بن زهر وابن قزمان، والهيثم المربيطري.

فابن قزمان ظهر في عهد عبد المؤمن بن علي الذي عرف بإمام الزجالين، ويقول فيه ابن خلدون:" أن أبابكر بن قزمان كان أول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية، فلم يظهر خلالها، ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه وهو إمام الزجالين على الإطلاق "، وقال ابن سعيد عن ابن قزمان: رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر ممّا رأيتها بحوافز المغرب.

وقد دخل بعض الزجالين الأندلسيين المغرب مثل: أبي الحسن بن مالك الغرناطي ، وقد مدح بعضهم الموحدين بالزجل مثل: أبي الحسن بن جحدر الذي فضل الزجالين في فتح ميورقة بالزجل الذي أوله:

من عاند التوحيد بالسيف بملحق وأنا بري ممن يعاند الحق

فإلى جانب الموشحات التي انتشرت بين أهل الأندلس بلغتهم الحضرية كان العرب الداخلون للمغرب أيام عبد المؤمن بن علي والمنصور الموحدي يشتغلون بنظمهم الشعر بلغتهم العربية المستعجمة، وهناك صنف ثالث من الشعر غير المعرب، ويقول عنه ابن خلدون:" ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية - أيضا - وسموه عروض البلد، وكان

أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الأعراب إلا قليلاً مطلعها:

أبكاني بشاطئ النهر نوح الحمام على الغصن في البستان قريب الصباح
وكيف السحر يمحو مداد الظلام وماء الندى يجري بثغر الأقاح

فأستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الأعراب الذي ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم، واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً إلى المزدوج والكازي والملعبة والغزل... واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها، فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فصولهم وهو من أهل تازا:

المال زينة الدنيا وعز النفوس يبهي وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام والرتبة العاليا

وبما أن الشعر غير المعرب صُنّف كنوع من الموشحات فإن ابن الخبازة الفاسي الذي وصف بأنه كان ناظماً ناثراً، له التفنن في أساليب الكلام معربه وهزله " والمراد بالهزل الشعر غير المعرب"، فكان له شعر على اختلاف اللغات: لغة الأندلس ولغة العرب الداخلين ولغة المغاربة [32].

بهذا يمكن القول بأن الموشحات والزجل كانا موجودين أيام الموحدين بالمغرب، إلا أنهما لم يدونا على أساس أنهما من الشعر غير المعرب، بمعنى: (الهزل في الكلام) كما وصف.

خامساً ــ الموسيقى.

من المعروف أن الموحدين مهما بلغ تسامحهم وتشجيعهم الفنون والعمارة والزخارف ، فإنهم لم يكونوا بطبيعة نظامهم الديني حماة للفنون الجميلة من الموسيقى وغيرها . فالنشأة التي نشأت عليها دولة الموحدين من التدين والتقشف ومقاومة المنكرات بما فيها آلات اللهو التي كان المهدي بن تومرت يأمر بكسرها ، وهذا ما حدث عندما دخل تلمسان ووجد عرساً به اللهو والموسيقى فكسر الدفوف ، كذلك عند دخوله مدينة فاس وجد بها الحوانيت مملوءة دفوفاً ومزامير وجميع آلات اللهو فأمر أصحابه بكسر كل ما وجد منها. كان هذا عاملاً قوياً في تحديد النهضة الموسيقية في

الدولة الموحدية من بدايتها، والدليل على ذلك أن الجيش الموحدي لم يستعمل من أدوات الموسيقى إلا الطبول ، ويقول ابن طفيل- كما في المعجب للمراكشي: " لو نفقت عليهم الموسيقى لا نفقتها عندهم ".

أما الغناء فقد كان المغاربة يغنون الأغاني الشعبية في المحافل والأسواق، وممن كان محترفاً بهذه المهنة أبي علي حسن عمر الفهري السبتي ، كذلك كان للعرب الداخلين للمغرب دور في ذلك، فعند دخولهم دخل معهم نوع آخر من الطرب، اختص بأشعارهم وملاحمهم، إلا أنه خلال العصر الثاني أخذ الطرب ينتشر وصار يستمع له بعض الأمراء الموحدين مثل: أبي الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن ، وفي أواخر الدولة الموحدية دخل الطرب الأندلسي إلى المغرب خاصة الغناء وانتشر في عهد الخليفة المرتضى الذي أعجب به- أيضاً- .

ونخلص القول بأن المغرب في بداية حكم الموحدين حارب الموسيقى وانتشارها إلا أن الوضع تغير أواخر أيام الدولة، حتى أصبح الخلفاء أنفسهم مولعين بالموسيقى والغناء ، فهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على ضعف خلفاء الموحدين نهاية العهد الموحدي.

الخاتمة:

لقد اهتمت دولة الموحدين بالأدب وصنوفه ولم تهمله في فترة حكمها ، حيث ظهر عديد الأدباء والشعراء إبّان تلك الحقبة، وكان هؤلاء امتداداً لعصور الأدب العربي القديمة ذات التاريخ التليد، والقيمة العظيمة ، هذا وقد نقل المؤرخين في مصنفاتهم الكثير والكثير من الأمثلة والقصص والنصوص الشعرية التي أثرت فترة زمن الموحدين، ومن أهم السمات الأدبية لدولة الموحدين:

1- حفاظ الأدباء على كثرة التصنيف والتأليف خصوصا في العلوم الدينية.
2- جزالة وغزارة الشعر وكثرة الشعراء في مختلف مناحيه وأنواعه.
3- اهتمام الخلفاء الموحدين بصنوف الشعر والنثر على مختلف توجهاتهم.
4- الحفاظ على نسق المدارس الشعرية دون ضعف.

الهوامـــــــــــش :

1- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.
2- محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ق2، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1964م.
3- - حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، القاهرة: دار الفكر العربي، 1957م.
4- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، القاهرة: دار الفكر العربي.
5- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.
6- المراكشي: المعجب، شفيق محمد عبد الرحمن الرقب: شعر الجهاد في عصر الموحدين، عمان: مكتبة الأقصى، 1986م.
7- - محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط2، الرباط: 1977م.
8- - محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط2، الرباط: 1977م.
9- علي الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط: المطبعة الملكية، 1967م.
10- أبو جعفر أحمد بن الزبير: صلة الصلة، وهو ذيل للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس، تح/ ليفي بروفنسال، الرباط: المطبعة الاقتصادية مدينة باريس، 1938م.
11- أبو جعفر أحمد بن الزبير: صلة الصلة، وهو ذيل للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس، تح/ ليفي بروفنسال، الرباط: المطبعة الاقتصادية مدينة باريس، 1938م.
12- أبو جعفر أحمد بن الزبير: صلة الصلة، وهو ذيل للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس، تح/ ليفي بروفنسال، الرباط: المطبعة الاقتصادية مدينة باريس، 1938م.
13- محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط2، الرباط: 1977م.
14- محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط2، الرباط: 1977م.
15- أحمد بن حمد القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام في مدينة فاس، الرباط دار المنصور للطباعة والوراقة، ق 1، 1973م.
16- محمد الرشيد ملين: عصر المنصور الموحدي، تونس: مطبعة الشمال الأفريقي، (د. ت).
17- محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدي، تونس: مطبعة الشمال الأفريقي، (د. ت).
18- محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط2، الرباط: 1977م.
19- ابن أبي زرع أبوالحسن علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: دار منصور للوراقة، 1972م.
20- عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تخليص أخبار المغرب، بيروت دار الكتب العلمية، 1998م.
21- عباس الجزولي: الأمير أبوالربيع سليمان الموحدي، بيروت: دار الثقافة المغرب، 1974م.
22- أبو العباس أحمد بن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح/ محمد إبراهيم الكتاني، وآخرون، الدار البيضاء؛ دار الثقافة للنشر والتوزيع؛ دار الغرب الإسلامي، 1985م.
23- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط2، 1984م.
24- عبد الله بن علام: الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة : دار المعارف، 1968م.
25- أحمد بن حمد القاضي المكناسي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام في مدينة فاس، الرباط دار المنصور للطباعة والوراقة، ق 1، 1973م.

26- أبو العباس أحمد بن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح/ محمد إبراهيم الكتاني، وآخرون، الدار البيضاء ؛ دار الثقافة للنشر والتوزيع؛ دار الغرب الإسلامي، 1985م.
27- ابن القطان علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي: نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف أخبار الزمان، تح/ محمود علي مكي، الرباط: دلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، (د.ت).
28- إبراهيم الألفي: الأدب العربي.
29- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح/ جعفر الناصري؛ محمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954م.
30- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح/ جعفر الناصري؛ محمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954م.
31- عبد الله كنون: أبو العباس الجراوي ذكريات مشاهير رجال المغرب، بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د. ت). أبوعبدالله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي بن الآبار: التكملة لكتاب الصلة، تح/ عزت العطار الحسني، بيروت: مؤسسة الثقافة الإسلامية، 1956م.